

شوقي ضيف والأدب العربي في ايران

الدكتور محمد علي أذرشب
(جامعة طهران)

شوقي ضيف استاذ مصري متخصص في الأدب العربي. من أوائل خريجي كلية الآداب في القاهرة. يشغل بالتدريس والتأليف والبحث العلمي منذ سنة ١٩٢٦ م (١٣٠٥ هـ) حتى الآن. ضيف مدرّس بالمعنى الحقيقي للكلمة لم يؤثر أية مسؤولية على التدريس. ورغم المناصب التي اقترحت عليه فإنه لم يترك مهنته. والآن. وهو في سن الخامسة والثمانين. عاكف بكل قواد على تربية الطلبة والباحثين في الجامعة وفي مجمع اللغة العربية في القاهرة. ألف خمسين كتاباً كلها تملأ فراغاً في المكتبة العربية وتنفع الطلبة والباحثين واعيد طبعها مرات.

ويدرس آراءه في الأدب العربي بإيران. ولد في محافظة دمياط بمصر سنة ١٩١٠ م. أصيب في صباه بمرض في عينه فقد على أثره عينه اليسرى إلا بصيصاً ضئيلاً^(١).

حفظ القرآن ثم التحق بمعهد ديني، وواصل دراسته في كلية آداب القاهرة، وتلمذ هناك على يد مجموعة من كبار أساتذة الأدب منهم: الدكتور طه حسين، والاستاذ أحمد أمين، والاستاذ ابراهيم مصطفى، والشايخ أمين الخولي، والشايخ أحمد الإسكندري، والدكتور عبدالوهاب عزام.

أشهر كتب الدكتور شوقي ضيف «تاريخ الأدب العربي» الذي خصص جزءه الخامس لتاريخ الأدب العربي في العراق والجزيرة العربية وايران منذ القرن الرابع حتى بداية العصر الحديث.

في هذا الكتاب يسرد المؤلف موجة حركة الأدب العربي في ايران منذ القرن الرابع حتى هجوم المغول، ويبين ما كان للغة القرآن من مكانة في هذا البلد، وما كان بين العالم الاسلامي من وحدة وارتباط.

هذا المقال يسلط الضوء على الشخصية العلمية والاخلاقية لهذا الاستاذ الممتاز في الأدب العربي

شوقي ضيف والأدب العربي في إيران

ثلاث سنوات، لم يتخلف فيها يوماً، ولم يفلت منه زائد
الدرس فيحكي طرفة أو نادرة، أو يستطرد ليتحدث عن
ذاته أو بعض مواقف حياته»^١.

مؤلفاته

ألّف الدكتور شوقي ضيف في الأدب والبلاغة والنقد
والنحو كما كتب في الدراسات الإسلامية وحقّق في
التراث. وتقرّب مؤلفاته من الخمسين، ويجمع فيها كم
ذكرنا أسلوب الكتاب الدراسي التعليمي وأسلوب البحث
العلمي، ويقدمها إلى الدارسين والباحثين في ديدجة
أدبية زاهية، وتبويب رائع يجتذب القارئ ويشدّه إلى
جميع فصول الكتاب. ومن المفيد أن نذكر هنا مؤلفاته
في المجالات المختلفة حسب سنوات صدورها.

الدراسات الأدبية

تخصّص شوقي ضيف في الأدب القديم، ولكنه
انشد إلى الأدب العربي في جميع عصوره، فدرسه في
عصره الوسيط والحديث دراسة تدل على سعة اطلاعه
وتدوّقه للأدب. ونجده في دراساته الأدبية جميعاً ناقداً
متأثراً إلى حدّ كبير بطبيعة المادة الأدبية التي يتناولها.
والكتب التي صدرت له في هذا المجال:

- ١- التطور والتجديد في الشعر الأموي (١٩٥٢)
- ٢- الشعر والغناء في المدينة ومكة لعصر بني
أمية (١٩٥٢)
- ٣- دراسات في الشعر المعاصر (١٩٥٢)
- ٤- شوقي شاعر العصر الجديد (١٩٥٣)
- ٥- ابن زيدون (١٩٥٤)
- ٦- الأدب العربي المعاصر في مصر (١٩٥٧)
- ٧- الفكاهة في مصر (١٩٥٨)
- ٨- العصر الإسلامي (١٩٦٠)
- ٩- العصر العباسي الأول (١٩٦٣)
- ١٠- مع العقاد (١٩٦٤)

أمضى شوقي أربع سنوات في قسم اللغة العربية
من كلية الآداب، وكان ضمن أول مجموعة تخرّجت فيها
سنة ١٩٣٥، فنال شهادة الليسانس بامتياز.

بعد تخرجه تعين محرراً بمجمع اللغة العربية، وبعد
سنة عُيّن معيداً بالقسم الذي درس فيه. حين كان طه
حسين معيداً للكلية. ومنذ ذلك التاريخ (١٩٣٦) لا يزال
يواصل مهمة التدريس هناك.

في سنة ١٩٣٩ نال درجة الماجستير على رسالته
التي أعدها في موضوع النقد الأدبي في كتاب الاغاني
لابي الفرج الاصفهاني بإشراف الاستاذ أحمد أمين.

وفي سنة ١٩٤٤ نال درجة الدكتوراه بمرتبة الشرف
الممتازة (الأولى)، وكان موضوعها الغن ومذاهبه في
الشعر العربي بإشراف الدكتور طه حسين.

جهوده العلمية الواسعة الطويلة في التدريس
والتأليف أهلت له لأن يكون أستاذاً معظم أساتذة الأدب
واللغة في العالم العربي كله. ولأن ينال عضوية المجمع
العلمية العربية الكبرى وجوائز تقديرية عديدة.

وعن سلوكه الاجتماعي يتحدث عنه تلاميذه
باعجاب شديد. يقول أحدهم:

«...وهنا أود أن أشير إلى سمة مهمة من سمات ذلك
الرجل العظيم... هي الحياء الشديد المقترن بعبقة القلب
واليد واللسان، لذلك لم يشترك - طوال عمره - في أية
خصومة، ولم يتدخل في أية عداوة ولم ينسج - أبداً -
بنميمة، ولم تتطرق إليه يوماً ريبة، وقد رأيت خصومات
وخلافات كثيرة كان الرجل على مرمى حجر منها، لكنه
ظل محافظاً على حياده المهذب. يشكو إليه هذا أو ذاك
من المتخاصمين، فلا ينقل كلمة ولا يشعل فتنة، وإنما
يسعى إلى الصلح والاصلاح ما استطاع اليهما سبيلاً،
لذلك ظلّ الأستاذ محايداً وموضع ثقة كل زملائه
وتلاميذه، وكان في رأيه لا يصدر عن هوى، وفي
مسيرته لم يحاول قط أن يأخذ حقاً ليس له، يؤكد ذلك
أيضاً أنني درست الأدب العربي القديم على يديه طوال

شوقي ضيف والأدب العربي في إيران

- ٨- الرحلات (١٩٥٦)
 ٩- في النقد الأدبي (١٩٦٢)
 ١٠- البلاغة تطور وتاريخ (١٩٦٥)

الدراسات النحوية

لم يكن شوقي متخصصاً في النحو، ولكنه كان حريصاً على أن يتمكن الناشئة في البلاد العربية من اللغة العربية الفصيحة. واعتقد أن ابتعاد اللغة العربية الفصيحة عن الألسنة يعود إلى الطريقة الجافة الجامدة التي يُقدّم بها النحو إلى الطلاب. يقول في مقدمة أحد كتبه:

«جميع البلاد العربية تشكو من الشكوى من أن الناشئة فيها لا تحسن النحو، أو بعبارة أخرى لا تحسن النطق بالعربية نطقاً سليماً، وكأنما أصيبت ألسنتها بشيء من الاعوجاج والانحراف، جعلها لا تستطيع أداء العربية أداءً صحيحاً، ونخطئ خطأ كبيراً إذا ظننا أن شيئاً من ذلك أصاب ألسنة الناشئة في بلداننا العربية جعلها تعجز عن النطق السديد بالعربية، إن مرجع هذا العجز أو القصور إلى النحو الذي يُقدّم إليها، والذي يرهقها بكثرة أبوابه وتغريعاته وأبنيته وصيغته الافتراضية التي لا تجري في الاستعمال اللغوي. وهو - مع ذلك - يغفل شطراً كبيراً من تصاريف العربية وأدواتها وصياغاتها، مما يجعل الناشئة لا تتبين كثيراً من أوضاع اللغة واستعمالاتها الدقيقة.

والأمران جميعاً من قصور النحو التعليمي الذي يُقدّم للناشئة عن الإحاطة بصيغ العربية وأوضاعها، ومن التوسيع في صيغ افتراضية واستعمالاتها يحفران الهمم إلى تيسير النحو وتبسيطه. ويتنادى كثيرون: دعونا من هذا التبسيط والتيسير، كأن من يبغون ذلك يريدون إدا من الأمر أو نُكراً، وهم إنما يبغون الخير كل الخير، حتى تحسن الناشئة نطق العربية لغة القرآن الكريم، الذي أتاح لها عزة فوق عزة، وسلطاناً على

- ١١- البارودي رائد الشعر الحديث (١٩٦٤)
 ١٢- البطولة في الشعر العربي (١٩٦٤)
 ١٣- فصول في الشعر ونقده (١٩٦٦)
 ١٤- العصر الجاهلي (١٩٦٩)
 ١٥- العصر العباسي الثاني (١٩٧١)
 ١٦- الشعر وطوائفه الشعبية على مرّ العصور (١٩٧٣)
 ١٧- عصر الدول والإمارات (ج ١) الجزيرة العربية - العراق - إيران (١٩٧٧)
 ١٨- عصر الدول والإمارات (ج ٢) مصر - الشام (١٩٨٤)
 ١٩- عصر الدول والإمارات (ج ٣) (الأندلس) (١٩٨٨)
 ٢٠- عصر الدول والإمارات (ج ٤) (المغرب)

الدراسات البلاغية النقدية

ما يتمتع به الدكتور شوقي ضيف من حسّ أدبي سرهف جعله يعالج المادة الأدبية بذوق نقدي في كل كتبه، ودفعه لأن يربّي طلابه على تذوق الأدب تذوقاً قائماً على أساس بلاغي نقدي بعيد عن القوالب المعقدة الجافة، فُقدّم في هذا المجال مؤلفات قيمة بعضها في تاريخ النقد، وبعضها في تناول مواد وموضوعات خاصة في الأدب العربي من منظار نقدي. وهي:

- ١- النقد الأدبي في كتاب الأغاني «مخطوط» (١٩٣٩)
 ٢- الفن ومذاهبه في الشعر العربي (١٩٤٣)
 ٣- الفن ومذاهبه في النثر العربي (١٩٤٦)
 ٤- النقد (١٩٥٤)
 ٥- المقامة (١٩٥٤)
 ٦- الرثاء (١٩٥٥)
 ٧- الترجمة الشخصية (١٩٥٦)

شوقي ضيف والأدب العربي في إيران

٩ - في التراث والشعر واللغة (١٩٨٧)
هذه الروح الموسوعية لدى شوقي ضيف جعلت
بعض تلاميذه يشبهه بالسيوطي. ويقول:
«إن شوقي ضيف يذكرني إلى حد كبير بعالم
مصري جليل ظهر في العصور الوسطى، هو جلال
الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي (٨٤٩١ - ٩١١ هـ).
الذي ظل طوال عمره مشغولاً بالتدريس والفتيا متفرغاً
للعلم والتأليف. وأستاذنا شوقي ضيف مثله عَفَّ كريم
حليم، صالح تقي ورع، زاهد عن متاع الدنيا ووظائف
الدولة، لذلك لا نغالي حين نقول إن شوقي ضيف هو
«سيوطي العصر الحديث...»^{٥١}.

مناهج دراسة تاريخ الأدب العربي

لكي نعرف موقع موسوعة تاريخ الأدب العربي
للدكتور شوقي ضيف بين ما أُلّف في هذا الحقل
نستعرض باختصار أهم الدراسات في هذا المجال
ومناهجها.

دراسات تاريخ الأدب العربي بدأت على يد
المستشرقين وتواصلت على يد الدارسين العرب. لقد
كانت كتب الأدب القديمة تقتصر على ذكر الروايات
المرتبطة بالشعراء والأدباء دون تحليل وتقويم وربط.
ثم بدأت في العصر الحديث دراسة الأدب في مسيرته
التاريخية، لفهم العوامل التي أثرت عليه سلباً أو إيجابياً،
والتغيرات التي طرأت عليه على مرّ الزمن.

أول من نهض بهذه العملية في الأدب العربي هو
المستشرق النمساوي جوزيف بروجشتال Purgstall.
Joseph Von Hammer (١٧٧٤ - ١٨٥٦) وقد حاول
كتابة تاريخ الأدب العربي منذ العصر الجاهلي حتى
العصر العثماني، ونشره بالألمانية في فينا بين سنتي
١٨٥٠ و ١٨٥٦.^{٥٢}

وثاني مؤرخ للأدب العربي مستشرق نمساوي آخر
هو ألفريد فون كريمر Alfred Von Kremer (١٨٢٨ -

النفوس لا يماثله سلطان، فضلاً عن أنها لغة العرب
القومية التي لا يتم للعرب بدونها مجد أو كيان»^{٥٣}.
وانطلاقاً من هذه النظرة التطويرية إلى النحو صدر
له:

١ - تحقيق الرّد على النحاة لابن مضاء القرطبي
(١٩٤٧)

٢ - المدارس النحوية (١٩٦٨)

٣ - تجديد النحو (١٩٨٤)

٤ - تيسير النحو التعليمي قديماً وحديثاً مع نهج
تجديده (١٩٨٦)

الدراسات الإسلامية وتحقيق التراث

الالتزام الإسلامي في دراسات شوقي ضيف
موضوع يحتاج إلى دراسة مستقلة، فالرجل يصدر في
كتاباته عن إيمان واضح بالرسالة الخاتمة واهتمام
لملوس بشدّ الجيل المسلم إلى تراثه الإسلامي. من هنا
نراه إلى جانب اهتماماته الأدبية يتجه إلى إصدار كتب
مستقلة في تحقيق التراث وتقديم مفاهيم الإسلام وهي:

١ - الرّد على النحاة لابن مضاء القرطبي (١٩٤٧)

٢ - رسائل الصاحب بن عباد (بالاشتراك) (١٩٤٧)

٣ - خطط العروس في تواريخ الخلفاء، لابن حزم
(١٩٥١)

٤ - خريدة القصر، للعماد الاصفهاني (بالاشتراك)
(١٩٥١)

٥ - المغرب في حلى المغرب، لابن سعيد
(بالاشتراك) (قسم شعراء مصر) (١٩٥٣)

٦ - الدرر في اختصار المغازي والسير، لابن عبد
البر (١٩٦٦)

٧ - سورة الرحمن وسور قصار (عرض ودراسة)
(١٩٧١)

٨ - السبعة في القراءات، لابن مجاهد (١٩٧٢)

توسّع فيه ليحيط بكل العصور والامصار. واختلف الباحثون الغربيون والعرب في مناهج دراسة الأدب العربي، لاختلافهم في مفهوم كلمة الأدب، وفي طبيعة تطور الحياة الأدبية، وفي عصور الأدب العربي.

بعض الباحثين تناول الأدب بمفهومه العام فأرخ الحياة العقلية والشعورية في الأمة تاريخاً عاماً كما فعل بروكلمان وجرجي زيدان، وبعضهم التزم المعنى الخاص للأدب أي ذلك النتاج الفني الذي يراعى فيه الجمال الفني والتأثير في ذوق القارئ والسامع^{٦٧}.

أما الاختلاف في نظرة الباحثين إلى طبيعة تطور الآداب فكثير، وغالباً ما نراه متأثراً بنظريات العلوم الطبيعية. بعضهم حاول تصنيف الآداب كما تصنف الفصائل النباتية المختلفة، ثم يستخلص كل صنف كما فعل سانت بيغ، Beuve Sante وبعضهم ذهب إلى أن آداب كل أمة يخضعون لعوامل الجنس والزمان والمكان، فلكل جنس خواصه، ولكل زمان ظروفه، ولكل مكان ميزاته الإقليمية والجغرافية، والأدب يتكيف وفق هذه العوامل الثلاثة وكأن الأديب ليس له شخصية مستقلة بنفسه. وهذا المنهج سلكه تين Taine في دراساته الأدبية. وهناك من العلماء من فتن بمذهب داروين في التطور والنشوء، وطبقه على الأدب على نحو ما فعل برونيتير Brunetiere. والواقع أن هذه المناهج كانت متأثرة بموجة تطور العلوم الطبيعية في أوروبا، وأثبتت إخفاقها في دراسة الأدب، لأن الأدب يرتبط بالإنسان، والإنسان كائن خلاق مريد مبدع، والنفس الإنسانية لها قوانينها الخاصة التي لا يمكن وضعها في قوالب العلوم الطبيعية.

أما بالنسبة لعصور الأدب العربي، فبعض الباحثين العرب رفضها أصلاً، واتجه إلى دراسة الأدب وفق موضوعاته لأعصوره. منهم محمد دياب (١٨٥٢ -

١٨٨٩). فقد ألف كتاباً تحت عنوان «تاريخ الحضارة في الشرق في ظل الخلفاء» في مجلدين (فيينا ١٨٧٧)، ومفهوم الحضارة عنده قريب من مفهوم الأدب عند بورجستال ويشمل كل ألوان الثقافة.

وقفز تاريخ الأدب العربي شوطاً كبيراً على يد كارل بروكلمان Carl Brockleman (١٨٦٨ - ١٩٥٦) ولا يقتصر على الأدب الإبداعي بل يتناول كل ألوان الفكر العربي. ثم تبعه كلين هوارد Clemant Huart (١٨٥٤ - ١٩٢٧) في كتابه: الأدب العربي (باريس ١٩٠٢) ورينولد نيكلسون Reynold Nicholson (١٨٦٨ - ١٩٤٥) في كتابه: «تاريخ العرب الأدبي» (١٩٠٧) وغيرهم كثير.

أما في العربية فقد ألفت منذ مطلع هذا القرن كتب تحت عنوان تاريخ الأدب العربي، كانت غالباً كتباً دراسية في الأدب أكثر من أن تكون كتباً في تاريخ الأدب، أو كانت تقليداً لكتاب بروكلمان على نحو ما فعل جرجي زيدان، حتى جاء طه حسين، فسلك طريق المستشرقين في دراسة تاريخ الأدب العربي، مع استخدام جيد لذوقه وملكاته الأدبية الشخصية، وفي اعتقاده أن «مؤرخ الأدب لا يستطيع أن يكتفي بمأثور الكلام، ولا بهذه العلوم والفنون التي تتصل بمأثور الكلام اتصالاً شديداً لتمكننا من فهمه وتدوقه، وإنما هو مضطر إلى أن يتجاوز هذا الإنسان من حيث هو حيوان ناطق يجب أن يعرب عما في نفسه بصورة كلامية فنية؛ فهو مضطر إلى أن يدرس تاريخ العقل الإنساني وهو مضطر إلى أن يدرس تاريخ الشعور... إن مؤرخ الأدب مضطر إلى أن يلم بتاريخ العلوم والفلسفة والفنون الجميلة، وتاريخ الحياة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية أيضاً...»^{٦٨}.

وأفضل من ألف في تاريخ الأدب العربي بعد طه حسين في اعتقادي هو تلميذه شوقي ضيف، وشوقي سلك طريق أستاذه في أسلوب دراسة الأدب على أنه

على الأدب.

ثم هو أفاد من المناهج المختلفة في دراسة الأدب، فوقف عند الجنس والوسط الزماني والمكاني الذي نشأ فيه الأديب دون أن يبطل فكرة الشخصية الأدبية والمواهب الذاتية، ولم يهمل أيضا نظرية تطور الأنواع الأدبية، واستضاء بدراسات النفسيين والاجتماعيين وما تلقى من أضواء على آثارهم الأدبية، وقرن بين السابق واللاحق في التراث الأدبي العربي بأجمعه. أما بالنسبة لعصور الأدب العربي فقد نهج أسلوب مبتكرا فيما يخص العصر العباسي وما يليه حتى العصر الحديث، إذ أبقي العصرين العباسيين الأول حتى سنة ٢٣٢ والثاني حتى سنة ٤٣٤ ومن هذا التاريخ حتى العصر الحديث أطلق عليه اسم عصر الدول والإمارات، لأن الدولة العباسية قد تفككت بعد العصر العباسي الثاني - على رأي شوقي ضيف - وتوزعت إلى إمارات وخلافات ودول كثيرة، فبحث في هذا العصر كل إقليم على حدة، وخصص جزءا لتاريخ الأدب العربي في العراق وإيران والجزيرة العربية، وسنخف عند القسم الخاص بإيران في عصر الدول والإمارات، ونركز على الأفاق الجديدة التي فتحتها الاستاذ الدكتور في هذا المجال.

الأدب العربي في إيران

يتناول هذا الجزء إيران في أكثر من مائة وتسعين صفحة (٤٨١ - ٦٧٣) يتحدث في بدايته عن الدول المتعاقبة، وهي الدول التي حكمت في إيران متعاصرة، أي كان كل منها يحكم جزءا من إيران خلال عصر واحد، وهي: الدولة الطاهرية، والصفارية، والعلوية، والسامانية، والزيارية، والبويهية، والغزنوية.

ثم عن الدول المتعاقبة، التي كانت كل منها تجمع شمل إيران وتنتشر على بلدانها لواء واحدا، وهي: دولة السلاجقة، والدولة الخوارزمية، والدولة المغولية،

(١٩٢١) الذي وزع جزأي كتابه: تاريخ آداب اللغة العربية (١٨٩٩ - ١٩٠٠) إلى ثمانية موضوعات هي: اللغة، والكتابة، والشعر، ودواوين الشعر، والنحو والصرف، وعلوم البلاغة، والمحاضرة، والانشاء. مؤرخا لكل ميدان من هذه الميادين على حدة.

ومنهم مصطفى صادق الرافعي (١٨٨١ - ١٩٣٧)، فقد هاجم تقسيم الأدب العربي إلى عصور وقال «إن المستشرقين الأوروبيين هم أول من ابتدعوا بسبب عجمتهم هذه الأقسام التي تصلح لتاريخ الآداب الأوروبية، ولا يجوز أن تكون أبوابا لتاريخ آداب لغتنا العربية».

أما الباحثون الذين قسموا تاريخ الأدب على العصور فاختلّفوا في هذا التقسيم، كلهم بدأوا دراستهم بالعصر الجاهلي ثم العصر الإسلامي ثم العصر الأموي وبعضهم أطلق على عصر الخلافة الراشدة والعصر الأموي اسم العصر الإسلامي. ثم العصر العباسي واختلفوا في تقسيمه، بعضهم قسمه على أربعة عصور وهي: الأول حتى موت الواثق سنة ٢٣٢ والثاني حتى دخول البويهيين بغداد سنة ٢٣٤، والثالث حتى دخول السلاجقة بغداد سنة ٤٤٧، والرابع حتى دخول المغول بغداد سنة ٦٥٦.

وبعضهم قسم العصر العباسي إلى عصرين: الأول

إلى نحو سنة ٤٥٠، والثاني إلى ٦٥٦.

ثم أطلقوا على العصر الذي يلي سقوط بغداد اسم عصر الانحطاط ورفض بعضهم هذه التسمية وسماه عصر المغول والمماليك والعثمانيين، وبعده العصر الحديث، وقالوا إنه يبتدئ من أوائل القرن التاسع عشر وقيل إنه يبدأ من أواسط القرن التاسع عشر.

أما منهج الدكتور شوقي ضيف في دراسة تاريخ الأدب العربي فقد اقتصر على الأدب بمعناه الخاص، ولكنه لم يهمل استعراض الحياة العقلية لمالها من تأثير

«وأول ما يلقانا منها رسالة صاحب بن عباد في الكشف عن مساوئ المتنبي.. ويلقانا في خراسان لعصر نوح بن منصور الساماني (٣٦٦-٣٨٧ هـ) راوية للمتنبي يسمى المتيّم وله فيه وفي شعره كتاب: الانتصار المنبي عن فضل المتنبي، وهو من الكتب المفقودة... وألف علي بن عبد العزيز الجرجاني المتوفى سنة ٣٩٢ هـ كتابه الوساطة بين المتنبي وخصومه... ويأتي بعده، الثعالبي المتوفى سنة ٤٢٩ هـ. ويعقد في كتابه اليتيمة فصلا طويلا عن المتنبي فيما له وما عليه... وكان يعاصر الثعالبي ناقد يسمى أبا القاسم عبد الله بن عبد الرحمن الاصفهاني، عاش في النصف الاخير من القرن الرابع والربع الاول من القرن الخامس، وقد ألف كتابا نشر أخيرا في تونس سماه: الواضح في مشكلات شعر المتنبي... وعني بالرد على تفسير ابن جني (الشعر المتنبي) ايراني ثان (ويقصد بالاول الاصفهاني المذكور) هو أبو علي ابن فوّرجة البروجردي المتوفى سنة ٤٣٧ هـ. وقد كتب في ذلك كتابين: كتاب الفتح على فتح أبي الفتح^{١٢٢}... ولابن فوّرجة كتاب ثان في الرد على ابن جني سماه: التجني على ابن جني... وحرّي بنا أن نذكر تتمة لهذا النشاط النقدي الذي عقده النقاد الايرانيون حول شعر المتنبي شرح علي بن أحمد الواحدي لديوان المتنبي... فقد رتب أشعار الديوان ترتيبا تاريخيا على حياة المتنبي وأيامه، وهو ما لم يتح لديوان آخر من دواوين شعراء العرب قاطبة...»^{١٢٣}.

وقفة الدكتور شوقي هذه فتحت لكاتب هذه السطور أفق دراسة المتنبي في إيران، وله نظير ذلك وقفات كثيرة في دراسته للأدب العربي في إيران تستحق دراسات مستفيضة.

الشعر في إيران

يعقد الدكتور ضيف الفصل الثالث من دراسته عن إيران للشعر ويلاحظ في هذا الفصل آراؤه التالية التي

والدولة المغولية الايلخانية، والدولة المغولية التيمورية وما تلاها.

ويبدأ بعد ذلك باعطاء صورة عن «المجتمع» في هذا العصر، تشمل حياة الأمراء والموظفين وفئات المجتمع في مجال الاقتصاد والدين والعادات والتقاليد والمعتقدات. وهي صورة تساعد الدارس كثيرا على فهم طبيعة الأدب في هذا العصر، وتستحق أن تكون نموذجا جيدا للدارسين والباحثين في الأدب. فالدراسة الادبية لا يمكن أن تنفك عن دراسة الظروف المعيشية والثقافية التي نشأ في مغناها الأدب.

ويقف الدكتور في دراسته عند «التشيع» و«الزهد والتصوف» باعتبارهما من أكبر المؤثرات الاجتماعية والثقافية في إيران خلال هذا العصر. ثم يتحدث عن الحركة العلمية. ويرى أن «القرنين الرابع والخامس للهجرة بايران يُعدّان أزهي قرون هذا العصر من حيث النهضة العلمية وبلوغها الاوج المنتظر»^{١٢٤}.

وحديثه عن النهضة العلمية يشمل مختلف العلوم في جميع أصقاع ايران وخاصة خراسان التي قالوا عنها إنها «جنة العلماء». وكانت لها نيسابور أكبر مركز للعلم بايران في هذا العصر»^{١٢٥}. وتناول حقول الفلسفة، وعلوم اللغة والنحو والبلاغة والنقد، وعلوم التفسير والحديث والفقه والكلام والتاريخ، وهي على رغم اختصارها مبنوبة تبويبا رائعا تساعد على إعطاء الدارس والباحث أفقا جديدة للدراسة والبحث. على سبيل المثال يشير في دراسته الى أثر المتنبي في إيران ضمن استعراضه للمباحث النقدية في هذا العصر، وهو موضوع مهم له دلالات كبيرة ويستحق الدراسة والتعمق.

يقول: «وكان المتنبي قد شغل في إيران وغير إيران وأكثرها من التخاصم والجدل في شعره»^{١٢٦}. فالقوا عنه الرسائل والكتب.

شوقي ضيف والأدب العربي في إيران

تستحق مزيداً من الدراسة نذكرها مع تعليقات بسيطة حتى لا نخرج عن حدود كتابة مقال.

١ - كان التوجّه الغالب في إمارة الطاهريين والصفاريين والسامانيين والغزنويين هو اللغة الفارسية والأدب الفارسي، أما البويهيون فلم يهتموا «بهذا الاتجاه القومي في إحياء الآداب الفارسية، فقد أثروا الانصواء تحت لواء الثقافة العربية الخالصة، وكثير منهم أتقنوا العربية، حتى اتخذوها لسانهم للتعبير عن عواطفهم وأهوائهم». وكانت بيئة البويهيين «بيئة عربية خالصة»^{١٤١}. وهذه الملاحظة تستدعي دراسة مستوعبة لتعايش اللغتين العربية والفارسية في العصر البويهي، فهذا التعايش في إيران ضرورة تقتضيها الحالة الإسلامية المرتبطة باللغة العربية، والحالة القومية المرتبطة باللغة الفارسية.

٢ - مع وجود نشاط شعري فارسي خلال القرون الهجرية: الرابع والخامس والسادس، فإنه لم يكن يقاس في شيء إلى نشاط الشعر العربي في إيران وأصحابه... وأكبر دليل على ذلك أنه بينما ألفت المجلدات الضخام عن الشعر العربي في تلك القرون على نحو ما تصور ذلك مجلدات اليتيمة ودمية القصر والخريدة لم يؤلف عن الشعر الفارسي كتاب يضم بين دفتيه شعراءه، وأول كتاب غني بهم هو كتاب لباب الالباب لعوفي المؤلف في أوائل القرن السابع الهجري... ولو أن الفتح المغولي لم يحدث في هذا القرن لظل الشعر العربي هو المسيطر على روح الجماعة الإيرانية»^{١٤٢}.

وهذا يعني أن انحسار الأدب العربي في إيران يعود إلى الدمار الذي أصيبت به الحضارة الإسلامية على يد المغول، لا إلى عصبية قومية كما يدّعي ذلك بعض الدارسين. وهي مسألة تستحق الدراسة لأنها توضح موقف الإيرانيين من الثقافة الإسلامية على مرّ العصور.

٣ - يرى الدكتور أن الشعر الفارسي الذي بدأ بالظهور منذ القرن الثالث نشأ في أحضان الشعر العربي، وكان الشعر العربي يغذيه طوال القرون التالية، وكان هناك تواصل وثيق بين شعراء الفارسية وشعراء العربية.

وجدير أن تتجه الدراسات الأدبية إلى الكشف عن هذا التواصل على نحو ما فعل استاذنا الدكتور حسين محفوظ في رسالته عن متنبّي وسعدي.

يقول ضيف إننا «إذا قلنا إن الشعر الفارسي كان دائم الاتجاه إلى الشعر العربي، وكان هذا الشعر دائماً يقع منه موقع البوصلة أو موقع الإبرة المغناطيسية يجذبه إليه في قوة لم تكن مغالين»^{١٤٣}.

٤ - يعتقد الدكتور أن الأدب العربي في إيران لم يُدرس كما ينبغي، ويدعو بصورة غير مباشرة إلى دراسة هذا الأدب في مغاني إيران، يقول: «ونيسابور من بلدان الدولة السامانية، وهي صالحة لأن تكتب في شعرائها دراسة قيمة عن نشاط الشعر بها، لا في عهد السامانيين وحدهم بل أيضاً في الحقب التالية. وبالمثل بلدان إيران الكبيرة المختلفة مثل أصبهان والري والجرجانية عاصمة الزياريين وخوارزم وهرات عاصمة خلف بن أحمد ممدوح بدیع الزمان الهمداني وغزنة عاصمة الغزنويين، فكل هذه البلدان وما يماثلها، وحتى بلاد الشاش في ما وراء النهر يمكن أن تغرد لها دراسة تضم شعراءها في اليتيمة والدمية وغيرهم من كتب التراجم مثل: طبقات الشافعية للسبكي، وسعد الأدباء لياقوت، ووفيات الأعيان لابن خلكان»^{١٤٤}.

والواقع أن الأدب العربي في إيران لم يتناول العرب ولا الإيرانيون بالدراسة، لأن العرب حرصوا على الكشف عن شعراء بلدانهم، اللهم إلا بعض الشعراء الإيرانيين مثل «الأبيوردي» فقد حقّق السورويون ديوانه ونشروه، وأكبر الظن أن دافعهم في ذلك أصله الشامي

عن مثل هذه الدواوين. خاصة حين تكون لرجل مثل علي بن عبد العزيز، فهذا الرجل صاحب كتاب الوساطة بين المتنبي وخصومه الذي تظهر فيه براعته الفائقة في النقد وسعة اطلاعه على الشعر العربي. وهو صاحب أعظم شعر في عزة النفس، وأعظم مناد لمنادمة الكتاب ولترفع العلماء عن الذلة والهوان. فهو القائل:

ما تطعمت لذة العيش حتى

صرت للبيت والكتاب جليسا

ليس شيء أعزّ عندي من العلم

سم فما أبتغي سواه أنيسا

وهو صاحب أشهر قصيدة تصور نفس العالم الابي الحر الذي يأبى الهوان مستشعرا كرامته الى أقصى حد، يقول فيها:

يقولون لي: فيك انقباض وإنما

رأوا رجلا عن موقف الذل أحجما

إذا قيل: هذا منهل قلّت: قد أرى

ولكنّ نفس الحرّ تحتل الظّما

ولم أفض حقّ العلم إن كان كلما

بدا طمع صيرته لي سلّما

ولم أبتدل في خدمة العلم مهجتي

لأخذم من لاقيت لكن لأخدما

أشقى به غرساً وأجنيه ذلّة

إذن فاتّباع الجهل قد كان أحزما

ولو أن أهل العلم صانوه صانهم

ولو عظّموه في النفوس لعظّما

ولكن أهانوه فهان ودسّوا

مُحيّاه بالأطماع حتى تجهّما

ومثله أبو الحسن علي بن أحمد الجوهري

الجرجاني، الذي كان يحسن الشعر في اللسانين العربي

والفارسي كما كان يحسن النثر. وله شعر رائع في أهل

بيت رسول الله يذكره صاحب أعيان الشيعة^{٢٢١}، وأدب

والأموي. أما الباحثون الإيرانيون فتوجهت دراساتهم لأسباب عديدة. إلى الأدب الفارسي. بل إن كثيرا ممن كتب منهم عن تاريخ الأدب في إيران أهمل إلى حد كبير النتاج العربي لأدباء إيران^{٢٢٠}.

ولأدب على إهمال الأدب العربي في إيران من عدم طباعة الجزء الخاص بإيران من كتاب خريدة القصر وجريدة العصر للعماد الاصفهاني. فقد طبعت الاجزاء التي ترتبط بشعراء كل صقع من أصقاع العالم العربي وادبانه، وظل قسم إيران مخطوطا حتى كتابة هذه السطور^{٢٢١}.

٥ - ينبه الدكتور شوقي ضيف الى أن الشعر في

إيران لم يقتصر على الشعراء المحترفين واللغويين حتى أننا نرى الشعر العربي على كل لسان. ثم يشير الى أن شعر هؤلاء العلماء متفرق في ثنايا الكتب ولم يستدل له من يجمعه أو ينشره. يذكر مثلا أن للزمخشري المفسر ديوان شعر لم ينشر. وهو زاخر بالادعية والابتهالات^{٢٢٢}.

وهكذا الفخر الرازي. ويشير الى أن طبقات الشافعية

الكبرى للسبكي مليء بأشعار الفقهاء في خراسان وغير خراسان مثل القفال الشاشي ومحمد بن عبد العزيز النيلي، والقشيري والابيوردي وكل هؤلاء من كبار فقهاء الشافعية في خراسان.

ويوجد شعر أيضا لأبي هلال العسكري صاحب

كتاب الصناعتين، والثعالبي صاحب يتيمة الدهر، وعبد القاهر الجرجاني صاحب دلائل الاعجاز وأسرار البلاغة... وغيرهم من العلماء والادباء الذين يذكرهم ضيف ليدل على «تفتح ينابيع الشعر العربي على ألسنة المتتقين من كل لون»^{٢٢٣}.

٦ - يشير الدكتور الى بعض الشعراء الإيرانيين ممن

سقط ديوانه من يد الزمن مثل علي بن عبد العزيز الجرجاني. ومثل هذه الاشارات تستحث الهمم للبحث

الطف (٢٣١)

من ذلك قصيدته التي مطلعها:
وجدي بكوفان ما وجدي بكوفان

تهمي عليه ضلوعي قبل أجفاني

ويختتمها بقوله:

هي الجواهر جاء الجوهرِي بها

محبّة لكم من أرض كوفان

وقصيدته التي يرثي فيها الحسين (ع):

اليوم شقق جيب الدين وانتهدت

بنات أحمد نهب الروم والصين

ويلفت النظر أن صاحب اليتيمة لا يذكر شعره

الشيوعي ولا من رثائه لسيد الشهداء الحسين بن

علي (ع). بل يذكر شعراً في المدح والغزل. ويذكر له بيتا

مبتكراً في تساقط الثلج ويشبّهه بشعيرات الريش

المتطايرة. يقول:

صك النسيم فراخ الغيث فانزعجت

يَنْفُضُنْ أجنحة من عنبر الرّغَب

ويقول الثعالبي معلقاً على هذا البيت: «لو لم يقرّ الا

هذا البيت لكان أشعر الناس»^{٢٤١}.

وانها لخسارة للدراسات الادبية العربية والايرائية

أن يهمل مثل هؤلاء الافذاد.

٧- في مواضع متفرقة من الكتاب يشير ضيف إلى

الحكم والأمثال في الشعر العربي في إيران باعتبارها

من حقول التأثير المتبادل بين الادبين العربي

والفارسي، وهو حقل بكر يحتاج الى كثير من الدراسات

المقارنة.

لقد بدأ انتقال الأمثال والحكم الفارسية الى العربية

منذ العصر العباسي الاول، إذ نقل أبان بن عبد الحميد

من الفارسية الى العربية كتاب كليلة ودمنة وما فيه من

أمثال وحكم في نحو أربعة عشر الف بيت. وإن أبا

العتاهية نظم مزدوجة طويلة سماها ذات الامثال، وكلها

حكم ويقال إنها كانت تبلغ أربعة آلاف بيت. ويرى

الدكتور ضيف أن أبا العتاهية نقلها عن الفارسية^{٢٤٢}.

وفي شعر أبي نؤاس بعض أمثال فارسية نصّ عليها

القدماء.

وفي إيران نجد قصائد حكمية هي ترجمات لبعض

الامثال الفارسية على نحو ما نراه عند أبي عبدالله

الضريير الابيوردي. فقد ذكر له الثعالبي قصيدة ترجم

فيها أمثال الفرس. وعلى نحو ما نراه عند أبي الفضل

السكري المروزي. الذي يقول عنه الثعالبي «كان مولعاً

بنقل الامثال الفارسية الى العربية» ويورد له أبياتا من

ذلك. والواقع أن إيران في عصر الدول والامارات

اشتهرت بشعر الحكمة. وكان الجيد من هذا الشعر

ينتشر بسرعة في العالم العربي مثل قصيدة أبي الفتح

البستي التي يقول فيها:

زيادة المرء في دنياه نُقْصَانُ

وربُّهُ غير مُحْضِ الخير خُسرَانُ

يا عامراً لخراب الدارِ مجتهداً

بإله هل لخراب العُمُرِ عمرَانُ

ويا حريصاً على الأموالِ تجمَعُها

أقْصِرُ فإنَّ سرور المالِ أحزانُ

أحسُّ إلى الناسِ تستعبد قلوبهم

فطالما استعبد الإنسانُ إحسانُ

وكُنْ على الدهرِ مِعْواناً لذي أَمَلٍ

يرجو نَدَاكَ فإنَّ الحرَّ مِعْوانُ

واشْدُدْ يَدَيْكَ بحبلِ اللهِ معتصماً

فإنَّه الرُّكْنُ إنَّ خانتك أركانُ

مَنْ جاد بالمالِ مالِ الناسِ قاطبةً

اليه والمالُ للإنسانِ فتانُ

والناسُ أعوانُ مَنْ واثته دولته

وهم عليه إذا عادته أعوانُ

ويعلق الدكتور شوقي ضيف على هذه القصيدة

بقوله:

اجتماعية الى رفض الظلم والدفاع عن المظلومين والى ذكر ظلامة أهل بيت رسول الله ﷺ، ولا يسع هذا المقال أن نستدل على ذلك.

النثر الادبي في ايران

في مجال النثر يشير الدكتور ضيف الى مجالس الوعظ، وكثير من هذه المجالس مكتوبة، كتبها السامعون واعتمدها الوعاظ، وتشكل مادة أدبية مهمة في العربية والفارسية. غير أن أكثرها مخطوط لم ينشر.

ومن كبار الوعاظ أبو عثمان الصابوني شيخ الاسلام بنيسابور المتوفى سنة ٤٤٩ هـ. وعظ المسلمين في مجالس التذكير ستين سنة، وخطب على منبر نيسابور نحو من عشرين سنة^{٢٨}. والفخر الرازي كان آية في الوعظ، وكان يحضر مجالسه أرباب المذاهب والمقالات في هراة، وكان يعظ باللسانين العربي والعجمي^{٢٩}. ومنهم امام الحرمين الجويني المتوفى سنة ٤٧٨ هـ، ومن أجله بنيت النظامية بنيسابور، وكان يجلس للوعظ والمناظرة، ومنهم القشيري الامام الصوفي الكبير المتوفى بنيسابور سنة ٤٦٥ هـ. ومنهم الغزالي الامام المشهور وأخوه أحمد^{٣٠}. ومنهم الشهرستاني صاحب الملل والنحل المتوفى بشهرستان سنة ٥٤٨ هـ. ولقد رأيت بعض رسائله المخطوطة في الوعظ، وهي تجمع بين العربية والفارسية في مزيج أدبي فريد^{٣١}.

والفن القصصي نما في هذا العصر على أيدي المتصوفة والفلاسفة في ايران. وهو مجال مهم من مجالات الدراسات الادبية التي تستدعي الاهتمام.

فالصوفية نشطوا في نشر الحكايات والاقاصيص عن المتصوفة والاولياء، وكانت تلقى رواجاً عند العامة «وكانت تروى بلغة وسطى بين الفصيحة والعامية. أو قل بلغة فصيحة قريبة من أفهام العامة، وبذلك كانوا

«واشتهرت له هذه القصيدة الحكمية منذ حياته وانتشرت في العالم العربي، وأخذت الاجيال العربية تردها في كل بلد، حتى لتصبح قصيدة شعبية، ينشدها الناس في كل مكان، وإلى زمن قريب كان المنشدون ينشدونها في مقاهي القاهرة. ولعل في هذا ما يدل - من بعض الوجوه - على ما يمتاز به الشعر العربي الفصيح من شعبية، فقصيدة تنظم في أقصى بيئاته في الشرق في «بشت» بأفغانستان الحالية تُنشد في قلب العالم العربي بالقاهرة، ويحفظها الشباب ويستظهرونها في المغرب كما يستظهرونها في المشرق»^{٣٢}.

وهذه في الواقع ظاهرة مهمة تدل على ترابط العالم الاسلامي ثقافياً يومئذ، ومثل هذه الظاهرة لاحظناها عند ذكر أثر المتنبي في ايران.

٨- أدب الكدية أو أدب التسؤل الادبي مما يختص به الأدب العربي في ايران، وهو أدب مهم لما فيه من طابع شعبي يصور فيه آلام الناس وتحايلهم على كسب معيشتهم، ولما فيه من استذكار لمصائب أهل البيت في أسلوب خاص يمزج بين الهزل والجد. ويعرف شعراء الكدية باسم الساسانيين.

وشيخ هذه الجماعة وزعيمها من شعراء القرن الرابع الهجري أبو دلف الخزرجي، ومسعّر بن مُهلهل. فقد طاف هذا الرجل في أرجاء العالم وكتب مذكراته عن الصين وأواسط آسيا ينقل عنها ياقوت في معجم البلدان والقزويني في آثار البلاد، واهتم المستشرقون بنشر ما بقي منها.

ويشبهه الدكتور شوقي ضيف هذه الجماعة بطائفة الأدبائية «التي كانت معروفة بمصر في أواخر القرن الماضي والتي كانت تظهر في موالد الأولياء متخذة من أشعارها وسيلة لاكتساب المال وابتزازه»^{٣٧}. وليس الامر كذلك فهذه الجماعة - في اعتقادنا - تحمل دعوة

شوقي ضيف والأدب العربي في إيران

الفتح لوهي عن مشكلات المتنبي وكتاب ابن فورجة هذا نشره الدكتور
محسن غياض بيغد داشرة عنمة محققة.

١٣- عصر ندول وإمارات، مصدر المذكور، ص ٥٥٤-٥٥٦.

١٤- مصدر نفسه، ص ٥٦٣.

١٥- مصدر نفسه.

١٦- مصدر نفسه، ص ٥٦٦.

١٧- مصدر نفسه، ص ٥٧٨.

١٨- نظر عن سبيل المثال: تاريخ ديبات إيران الفارسي، ديبح مه
صفا.

١٩- يعني أن صديقتي الدكتور عدنان ضعمة يعكف عن تحقيق هذا
نفسه وإعادة النشر.

٢٠- عصر ندول وإمارات، المصدر المذكور، ص ٥٧٣.

٢١- مصدر نفسه، ص ٥٧٤.

٢٢- عبد الحسين لاميني، ج ٨، ص ١٥٥، دار المعارف، بيروت.

٢٣- جو دشير، ج ٢، ص ١٣٠ وما بعدها، بيروت.

٢٤- نسمة نذري في محاسن أهل العصر، ج ٤، ص ٣٧، دار الفكر،
بيروت.

٢٥- عصر ندول وإمارات، المصدر المذكور، ص ٦٢٧.

٢٦- مصدر نفسه، ص ٦٣٤.

٢٧- مصدر نفسه، ص ٦٣٦.

٢٨- بر سعيد سمعاني، الأتساب، ط ١، ج ٣، ص ٥٠٦، دار الجنان،
بيروت، ١٤٠٨ هـ.

٢٩- عصر ندول وإمارات، المصدر المذكور، ص ٦٢٠.

٣٠- مصدر نفسه، ص ٦٤٦-٦٤٧.

٣١- نعت إحداهما إلى العربية وألقبها بتفسير الشهرستاني المسمى
مفاتيح الأسرار ومصايح الأبرار تحت طبعها.

٣٢- عصر ندول وإمارات، مصدر المذكور، ص ٦٤٣.

يتداولونها وكانت تشيع في أوساطهم، وتنتشر، عاملة -
الى حد - في الإبقاء على العربية الفصيحة، لغة متداولة
على السنة الايرانيين في ذلك العصر...»^{٣٢} ومن هذه
القصص ما نجده في الرسالة القشيرية، للقشيري
مؤسس التصوف السنّي.

والى جانب القصص الصوفي يلقانا القصص
الفلسفي الرمزي مثل قصص ابن سينا: حي بن يقظان،
وسلامان وأبسال، ورسالة الطير.
أضف الى ذلك كله المقامات بما فيها من طابع
قصصي بلاغي.

هذه بعض الآثار التي ترد في دراسة الدكتور
شوقي ضيف عن الأدب العربي في إيران خلال عصر
الدول والإمارات. عسى أن تكون هذه الآثار
وشخصية صاحبها حافزا للدارسين والباحثين على
دراسة جادة للأدب العربي خاصة فيما يرتبط بإيران.

المصادر والهوامش

- ١- شوقي ضيف معي، طبع دار معارف، ١٩٨١، ص ١٤.
- ٢- طه ودي: شوقي ضيف، سيره عام ومسيره لسنن، مجلة كنية
الأدب، جامعة القاهرة، العدد ٢، مجلد ٥٠، ديسمبر ١٩٦٠، ص ٤.
- ٣- شوقي ضيف: تفسير النحو الشعبي فدياً وحديثاً، ط ١، دار
المعارف، القاهرة ١٩٨٦، ص ٣.
- ٤- طه وادي: المصدر المذكور، ص ٢٣.
- ٥- نجيب العقيلي: المستشرقون، القاهرة ١٩٨٠، ج ٢، ص ٢٧٤-
٢٧٦.
- ٦- طه حسين: من تاريخ الأدب العربي، ط ٤، دار تعبة لسلايين،
١٩٨١، ج ١، ص ٣١.
- ٧- شوقي ضيف: العصر الجاهلي، ط ٧، دار معارف بمصر، ص ١١.
- ٨- العصر الجاهلي: المصدر المذكور، ص ١٣.
- ٩- عصر ندول وإمارات الجزيرة العربية، العراق، ط ٢،
دار معارف بمصر، ص ٥٢١.
- ١٠- المصدر نفسه، ص ٥٢٢.
- ١١- المصدر نفسه، ص ٥٤٤.
- ١٢- ابو الفتح هو بن جني، وفتح أبي الفتح يقصد به كتاب بن جني: